مجتمع مخطوطات البحر الميت الفعلي

يستبعد الباحثون الثقاة أن تكون أيا من الطوائف التى عرضنا لها سابقًا: الصدوقيون، الفارسيون، الزيلوت، الحاسيديون (الآسيديون)، السيكاريون، هى التى أقامت مجتمع قمران فى الفترة التى نتحدث عنها وأن تكون هى صاحبة مخطوطات لفافات البحر الميت وقد توجهوا لأسباب وقرائن إلى طائفة هى طائفة (الإيسينيين)؛ وحيث يؤكد الثقاة أن الورثة الروحانيين للمكابيين لم يكونوا لا الصدوقيون ولا الفارسيون وإنما هم: الإيسينيون. ووجه اليقين أو شبه اليقين فى هذا نستقيه من كتابات ثلاثة من مؤلفى القرن الأول الميلادى – أى معاصرون لهم أو قريبون من زمانهم – وأول هؤلاء الثلاثة هو بلينى الأكبر صاحب (التاريخ الطبيعى) والذى وصف فيه مجتمعًا يسمى مجتمع (إيسينيين) Essenes يعيش بالقرب من البحر الميت: ونص ما ذكر عنهم فى التاريخ الطبيعى: "فى الجانب الغربى من البحر الميت، ولكن خارج الزفارة المؤذية على الشاطئ تعيش هناك قبيلة الإيسينيين، والتى تتميز عن كل القبائل فى العالم بأسره وحيث لا توجد نساء والتى نبذت كل رغبة جنسية، وليس لها مال وإنما فقط أشجار النخيل للجميع. ويوما بعد يوم تجند حشودًا من اللاجئين وتزداد أعداد الأشخاص المنضمين إليهم ممن أرهقتهم الحياة وتتدافع إلى هناك فى موجات على أمل اعتناق طرائقهم فى الحياة. وهكذا من خلال آلاف الأعمار يعيش جنس من البشر لم يولد أحد فيه، إلى الآن.

ويستمر بلينى الأكبر فى حديثه ليقول "ويقع تحت الإيسينيين كانت هناك سابقًا مدينة إنجيدى ثانى أخصب مدينة – بعد أورشليم – فى أرضها وفى وديان أشجار النخيل ولكنها الآن مثل أورشليم كومة من التراب، وبعدهما تأتى ماسادا قلعة حامية على صخرة وهى الأخرى ليست ببعيدة عن البحر الميت. وتلك هى حدود "يهوذا".

ويرى الباحثون أنه رغم رنة الخطابة والبلاغة البادية فى كلام بلينى ووصوفاته إلا أنه قد وضع أيدينا على بعض المعلومات الخاصة بالمجتمع الدينى الذى كان قائما هناك والصحراء اليهودية. كذلك يرى هؤلاء الباحثون أنه إذا كانت إنجيدى تقع إلى الجنوب من قمران، وبعدها ماسادا فإن بلينى فعلا يصف ثلاث مواقع كبرى على الشاطئ الغربى من البحر الميت من الشمال إلى الجنوب ويستطردون فى القول بأن وجود المرأة فى مجتمع قمران والنقود التى عثرنا عليها فى أطلال المستوطنة على نحو ما رأينا من قبل يجعل حديث بلينى بعيدًا نسبيًا عن مجتمع قمران صاحب المخطوطات الذى عاصره بلينى. ولكن على حسب "دليل النظام "يمكننى القول مطمئنًا أن بلينى لم يجانبه الصواب وكان فعلا يصف طائفة الإيسينيين صاحبة المخطوطات.

وإذا تركنا بلينى الرومانى ومصدره الرومانى إلى كتابات (فيلو) اليهودى السكندرى الذى عاش ٣٠ق.م – ٤٥م فلسوف نجد فيها أيضًا معلومات عامة عن الإيسينيين وإن كانت مفصلة نسبيًا:

"فى سوريا الفلسطينية أيضًا لانعدم وجود تميز أخلاقى على درجة عالية. ففى هذا البلد يعيش جانب كبير من أمة اليهود الغنية جدًا بالسكان من بينهم فيما يقال مجموعة من الأشخاص تربو على أربعة آلاف يسمون (الإيسينيين). واسمهم فيما أظن قد اشتق من كلمة إغريقية تعنى القداسة، وهى صفة أو اسم أطلق عليهم لأنهم كرسوا حياتهم خاصة لخدمة الله ليس عن طريق تقديم قربانات الحيوانات ولكن عن طريق تقديس العقل وإعماره. وأول شيء عن هؤلاء الناس هو أنهم يعيشون فى قرى ويتجنبون المدن بسبب الظلم والآثام التى تفشت بين سكانها ولأنهم يعلمون أن صحبتهم وجمعهم سوف يكون له تأثير قاتل على نفوسهم مثل المرض الذى ينتشر فى جو وبائى. بعض هؤلاء يعمل فى الأرض والبعض الآخر يعمل فى الحرف ويتعاون من أجل الأمن والسلام وهكذا يفيدون أنفسهم وجيرانهم وهم لا يكنزون الذهب والفضة ولا يحوزون شرائح كبيرة من الأرض لأنهم يرغبون عائداتها ولكن حتى يستخرجوا منها احتياجات الحياة الضرورية.

وربما كانوا وحدهم فى هذا العالم وبين الجنس البشرى كله الذين تجردوا من المال وتجردوا من ملكية الأراضى بمحض إرادتهم وليس بسبب الافتقار إلى الثروة. وهم فى حقيقة الأمر أغنياء من جانب آخر بل أغنياء إلى أبعد حد من حيث أنهم يقتصدون فى النفقات ويمزجون هذا الاقتصاد بالقناعة. ولا تجد بينهم من يصنع الرماح أو السهام أو الخناجر أو الخوذات أو الدروع أو الصديريات أو بصفة عامة لن تجد أى شخص هنا يعمل فى صنع الأسلحة أو آلات الحرب أو أية صناعة أخرى متعلقة بالحرب. كذلك لن تجد هناك أية صناعة سلمية من أى نوع، تساعد على الوقوع فى الرذيلة أو اقتراف الأثم والإنحراف. وهم ببساطة ليست لديهم أدنى فكرة عن التجارة سواء الجملة أو القطاعى أو البحرية، ولكنهم يغلقون أية إغراءات للمشتهيات بعيدًا عنهم وبقرف. وليس هناك عبد واحد من بينهم ولكنهم جميعًا أحرارٌ يتبادلون الخدمات فيما بينهم وهم يلومون ملاَّك العبيد ليس فقط بسبب ظلمهم وخرق قانون المساواة ولكن أيضًا بسبب عدم التقوى وخرق ناموس الطبيعة فقد خلق الله الناس متساوين وبنفس الشكل وخلقهم إخوانًا لكل هويته وبأسماء مختلفة وأقدار مختلفة على الرغم من أن هذه القرابة قد تعرضت للاضطراب بسبب الرغبة المؤذية فى تملك ما للغير والتى أسفرت عن التغرب بدلا من الألفة والعداوة بدلاً من الصداقة. وأما فيما يتعلق بفلسفتهم فقد نبذوا الجانب المنطقى على أساس أن المراوغات اللفظية غير ضرورية لاكتساب الفضيلة وترك الثرثرة فى سبيل النظر والتأمل، وترك ما هو خارج حواس الإنسان. وكانت الفلسفة عند هؤلاء الناس هى فقط التفكر فى وجود الله وخلق العالم والكون. ولقد حظى الجانب الأخلاقى بدراسات جادة عميقة محتذين فى ذلك قوانين آبائهم، والتى لا يمكن إدراكها بواسطة النفس البشرية دون إلهامات إلهية.

"ولقد شغلوا أنفسهم بتعلم هذا الجانب فى جميع الأوقات ولكن على وجه الخصوص فى اليوم السابع، لأن هذا اليوم السابع خصوه بأن يكون اليوم المقدس عندهم؛ وفى هذا اليوم يتخلون عن أى عمل آخر ويتقدمون إلى أماكن مقدسة يسمونها (سيناجوج) وهناك يصطفون فى صفوف متراصة بحسب السن، الصغير

خلف الكبير وهم يجلسون بطريقة منظمة منسقة حسبما تتطلب المناسبة وكلهم آذان صاغية. ويقوم واحد بسحب الكتب ويقرأ بصوت عالٍ ويقوم آخر من ذوى الكفاءة والعلم بشرح ما يكون غامضًا على المجموعة. وعادة ما تتخذ دراساتهم الفلسفية شكل المجاز وهم فى هذا الشأن يتمثلون تراث وتقاليد الماضى وهم متمرسون على التقوى والقداسة والعدل والسلوك المحلى والمتحضر وهم يعرفون تمامًا ما هو الخير وما هو الشر وما هو محايد، وكيف يختارون ما ينبغى ويتجنبون العكس. ومعاييرهم القاطعة الثلاثة التى يأخذون بها هى: محبة الله؛ محبة الفضيلة، محبة الناس. وهم يؤكدون محبة الله بعدد من البراهين: النقاء الدينى المستمر والذى لا ينقطع طوال حياتهم؛ الامتناع عن الحلف (القسم)؛ الصدق، بالاعتقاد فى أن الله هو مصدر كل خير وليس الشر. أما حبهم للفضيلة فإنه إنما يتأتى بتحررهم من حب المال أو السلطان أو المتعة وكذلك بالسيطرة على الذات والتحمل ثم بالاقتصاد فى الانفاق والمعيشة البسيطة والتواضع واحترام القانون والتعقل وكل ما شابه ذلك. أما حبهم للناس فإنما يتأتى من عمل الخير والاحساس بالمساواة وروح الصداقة والزمالة التى يتحلون بها والتى تفوق الوصف، رغم أن بضعة كلمات حولها لا تضر السياق. ففى البداية فإن بيت الرجل ليس له بمعنى أنه ليس مشتركا بين الجميع لأنه إلى جانب حياتهم العامة فى مركز المجتمع فإن أبواب البيوت مفتوحة للزائرين من كل مكان والذين يأتون لمشاركتهم احتفالاتهم.

"ومرة أخرى فإن لهم جميعًا خزينة مال واحدة وإنفاقات عامة واحدة، وملابسهم معلقة فى مكان عام جميعًا وكذلك طعامهم من خلال مؤسستهم فى وجبات عامة مشتركة ولا نجد فى أى مجتمع آخر عادة مشاركة السقف والحياة والممارسة الفعلية للعمل العام، بطريقة لا يتوقعها أحد. والأجور التى يتقاضونها من عملهم اليومى لا يحتفظون بها كملكية شخصية ولكنهم يلقون بها فى الرصيد العام ويتركون الانتفاع بها لمن يريد المشاركة فيها والإفادة منها والمرضى لا يهملون لمجرد أنهم غير قادرين على العطاء ولكنهم يتلقون تكاليف علاجهم من الرصيد العام المتراكم بالفعل؛ وهكذا فإنهم يغطون نفقاتهم من الثروة الكبرى وبسرية تامة.

ويحظى كبار السن بالاحترام والرعاية التى يقدمها الأطفال الفعليون لوالديهم، وهم يتلقون الرعاية والعناية السخية الكاملة من عدد لا يحصى ولا يعد من الأيادى والعقول فى أواخر أيامهم.

وفى كتاب آخر لنفس المؤلف "فيلو" يلفت فيه الانتباه إلى طريقة ونمط حياة الإيسبنيين معلقا على الصناعة وعلى التقوى التى يتحلون بها. وهو يشير إلى الملكية العامة المشتركة للمال والعقار، ويصف إصرارهم على قاعدة العزوبية والتبتل بين أفراد الجماعة على خلفية أن الزوجات والأولاد تخرج المجتمع ككل عن الطريق الأوحد للبحث عن الحقيقة والصلاح. وحسبما ذكر "فيلو" ينظر الإيسينيون إلى الزوجات على أنهن مخلوقات غيورات العقل يسلبن الرجل جهده ووقته ويلوين إرادته نحو العبودية الدائمة والزوجة التى هى أيضًا أم هى خطر حقيقى على الحياة الجماعية، الحياة الطائفية لأنها يمكن أن تستخدم ذريتها كوسيلة لفرض شخصيها وإرادتها على الآخرين بطريقة محسوبة ومن ثم إفساد الحياة الروحية والانسجام الروحى للجماعة.

"لم يكن هم الإيسينيين لينصرف إلى قضية المولد لأن المولد ليس علامة فارقة فى الروابط التطوعية، ولكن إلى رغبتهم فى الفضيلة، وسعيهم الدؤوب لترويج ونشر الحب الأخوى. وليس من بينهم أى شخص يسمح لنفسه بالاستيلاء على ملكية خاصة، سواء البيت أو العبد أو العزبة أو الماشية أو أى شيء آخر تراكم وترك ولكنهم يضعون كل شيء معًا فى الرصيد العام ويجنى الكل ثماره المشتركة. وعندهم أشغال عديدة يعملون فيها بهمة لا تعرف الملل أو الكلل ولا يشكون الحر أو البرد أو أى شيء آخر من التغيرات المناخية العنيفة أو يتخذون عذرا للتكاسل عن العمل.

وأكثر من هذا فإنهم يتحاشون الزواج لأنهم ينظرون إليه على أنه الخطر الأوحد أو الرئيسى لاستمرار حياة الجماعة العامة إلى جانب أنهم يمارسون كبح النفس عن ممارسة الجنس. وليس للإيسينى أن يتخذ زوجة لأن الزوجة مخلوق أنانى تغار غيرة زائدة وهى خبيرة ماهرة فى سلب أخلاقيات زوجها وهى تغويه بحيلها المستمرة.

وبالنسبة لهذا الغارق إلى أذنيه فى حب زوجته أو الواقع تحت ضغوط الطبيعة، ويجعل من أطفاله مبلغ همه ورعايته الأولى؛ فإنه يتوقف أو لا يصلح أن يكون كذلك بالنسبة لغيره؛ وبطريقة لا شعورية يصبح رجلاً مختلفًا وينتقل من الحرية إلى العبودية".

ويرى الباحثون الثقاة أن "فيلو" كاتب هذه الفقرات كانت لديه نزعة أخلاقية شديدة واتجاه للدفاع عن الدين عندما تعرض للحديث عن الإيسينيين، فهو يكتب عنهم بتعاطف كبير؛ وهو يستخدم شعبه (الإيسينيين) فى محاولة لإظهار أن الفضيلة لم تختلف كلية من على مسرح الحياة المعاصرة. وربما بسبب الاحترام والتوقير العام الذى كانت عليه تلك الجماعات. ويريد "فيلو" أن يثبت لنا أن الممالك الوثنية وجدت نفسها مضطرة أن تضفى الاستحسان والقبول والشرف على هذه الجماعات.

أما ثانى اليهود الذين كتبوا عن الإيسينيين (وثالث الكتب فى هذا السياق) فهو فلافيوس جوزيفوس (٣٧-١٠٠م).وأولى كتاباته عن هذه الطائفة جاء ضمن كتابه الثانى عن (حروب اليهود) والذى كتبه بعد عدة سنين قليلة من هدم المعبد وتدمير القدس سنة ٧٠م، وهناك إشارات إلى الإيسينيين فى كتاباته الأخرى إلى جانب وصف ثانٍ أقصر عن هذه الطائفة الدينية فى كتابه (آثار اليهود) الذى كتبه فى حدود سنة ٩٠م. وجوزيفوس مثل "فيلو" كتب عن الإيسينيين من وجهة نظر الشخص المتعاطف مع مثلهم العليا وقدمهم للناس بالطريقة التى تروق للرجل المهذب. وطبقا لشهادته هو فقد كان إيسينيا مبتدئًا فى فترة من فترات المراهقة ولكنه لم يقل لنا إلى أى مدى انغمس فى حياة هذه الطائفة.

وفى كتاب (حروب اليهود) قدم لنا فلافيوس جوزيفوس وصفًا مطولاً عن الإيسينيين نقتطع منه جزءًا يسيرًا.

"هناك ثلاث طوائف فلسفية بين اليهود: أتباع الطائفة الأولى هم الفارسيون؛ وأتباع الطائفة الثانية هم الصدوقيون؛ والطائفة الثالثة التى تتبع نظامًا صارمًا

يسمون (الإيسينيون). وهذه الطائفة الأخيرة هم يهود بالمولد، وهم يكنون لبعضهم البعض حبا كبيرا أكثر مما عند الطوائف الأخرى.

"هؤلاء الإيسينيون يرفضون الملذات باعتبارها شرورًا ويقدرون كبح الشهوات وخاصة الجنسية ويقهرون العواطف ويعتبرون ذلك من الفضائل. وهم يهملون الزواج ولكنهم يحبون أطفال الآخرين ويختارونهم طالما أنهم طيعون وقابلون للتعليم ويقبلون بهم أن يكونوا أقارب لهم ويشكلونهم طبقا لعاداتهم الخاصة. وهم لا ينكرون كلية فكرة الزواج واستمرار مسيرة البشرية عن طريقه ولكنهم يتحفظون على السلوك الفاجر للنساء ولا يمكن للمرأة أن تحافظ على ولائها لرجل واحد.

"هؤلاء الرجال يحتقرون الثروات ويصلون بعضهم بعضًا ومن ثم فهم ينتزعون إعجابنا. وليس من بينهم من له سوى غيره. إنه القانون السائد بينهم أن من يأتى إليهم لابد أن يجعل ماله ملكا للجميع، لكل الطائفة: ولذلك فليس بينهم جميعًا أى مظهر للفقر أو للغنى الزائد فكل ما يملكه كل واحد يمزج ويخلط مع ما يملكه الآخرون.. وهناك قهرمانات أى وكلاء معينون للإشراف على شئونهم العامة، والذين ليس لأى منهم عمل خاص مستقل وإنما يعملون فقط لصالح المجموع.

"ليس لهذه الطائفة مدينة خاصة ولكن كثيرًا منهم يسكنون فى كل مدينة، وإذا جاء أى واحد من طائفتهم من أى مكان فإنه يحل ضيفًا عليهم كما لو كان البيت بيته ولذلك فإنهم يرحب بهم فى أى مكان لم يطرقوه من قبل كما لو كانوا يعرفون بعضهم البعض منذ أمد طويل.

"أما أسلوبهم نحو تقوى الله فإنه شديد الغرابة، ذلك أنهم قبل شروق الشمس لا ينطقون كلمة واحدة بذيئة دنسة ولكنهم يبدأون صلاة معينة تعلموها وتلقوها من آبائهم الأقدمين كما لو كانوا يتضرعون ويبتهلون حتى تبزغ. وبعد الصلاة يُرسل كل منهم بواسطة رئيسه إلى العمل لمزاولة الحرفة التى يجيدها والتى يظل يعمل بها لمدة خمس ساعات بجد، وبعدها يتجمعون جميعًا فى مكان محدد واحد،

وبعد أن يلبسوا ثيابًا بيضاء غير مخيطة يذهبون للاغتسال الكامل لأبدانهم بماء بارد للتطهر، ثم ينصرفون كل مع زميله إلى الغرفة الخاصة بهما والتى لا يسمح لغيرهما من أفراد الطائفة بالدخول إليها، وبعدها ينتظمون فى صفوف بطريقة مهذبة ويسيرون إلى قاعة الطعام كما لو كانوا ذاهبين إلى المعبد المقدس ويجلسون بهدوء حيث يقدم لهم الخباز أرغفة الخبز واحدا بعد الآخر فى نظام ثم يمر عليهم الطباخ كل بطبق فيه نوع من الطعام ويضع الطبق أمام كل منهم وقبل تقديم اللحم يقف القسيس ليتلو بعض آيات الكتاب المقدس أو الدعوات الصالحات ومن العيب أن يمد أحدهم يده إلى الطعام قبل تلاوة الآيات والدعوات؛ ونفس هذا القسيس بعد أن ينتهى من الطعام يتلو أيضًا بعض الآيات والدعوات. ومنذ أن يبدأوا الأكل حتى نهايته يسبحون الله الذى أسبغ عليهم نعمة هذا الطعام، وبعد أن يخلعوا عباءاتهم البيضاء يعودون إلى العمل مرة ثانية حتى المساء ثم يعودون بعد ذلك إلى منازلهم للعشاء بنفس أسلوب الغذاء وطريقته.. وليس فى هذا كله أى تذمر أو جانب يعكر صفو الطائفة لأن من حق كل منهم أن يبدى رأيه ويتكلم فى دوره...

"شيئان فقط يسمح للعضو بأدائهما بملك إرادته وحريته وبدون إذن أو لائحة: تقديم المساعدة لمن يحتاج إليها والتراحم... وهم يعبرون عن غضبهم وتذمرهم بطريقة منظمة، ويكظمون غيظهم ويكبحون جماح عواطفهم. إنهم سفراء الوفاء والإخلاص فى وزارء السلام وما يقوله الشخص هو أكيد أكثر من القسم وهم يتجنبون الحلف والقسم فيما بينهم. ويعتبرون الحلف – حتى ولو بالصدق – أسوأ من القسم الكاذب والحنث بالحلف.

"وعندما يفكر شخص ما فى الانضمام للطائفة فإنه لا يسمح له بالانضمام مباشرة ولكن يفرض عليه أن يعيش عيشتهم التى أعتادوا عليها لمدة عام وهو ما يزال خارج الجماعة، وهم يعطونه "بليطة" (منقرة أو فأسًا صغيرة أو بلطة صغيرة بيد قصيرة) وحزاما وعباءة على ما سبق ذكره، وعندما يعطى القرينة والأذن خلال تلك الفترة بأن يكون مراقبًا ويلاحظ قدرتهم على كبح النفس فإنه يقترب أكثر من طريقة معيشتهم ويسمح له بمشاطرتهم ماء التطهر وحتى هذه اللحظة لا يسمح له

بالانضمام إلى الجماعة وأن يعيش معهم ويختلط بهم لأنه بعد هذا الاختبار للثبات والجلد عنده فإن حالته المزاجية تخضع للاختبار لمدة عامين آخرين وإذا ظهر أنه يستحق العضوية بعد هذين العامين فإن ينضم للجماعة. وقبل أن يسمح له بتناول الطعام العام المشترك تؤخذ منه أغلظ الأيمان بأنه فى المقام الأول سوف يمارس تقوى الله ويراعى العدل إزاء الجماعة (انظر دليل النظام).

"وهؤلاء الذين يضبطون وهم يرتكبون خطايا فاحشة شنيعة فإنهم يطردون فورًا من الجماعة، ومن يفصل من المجتمع بهذه الطريقة فإنه يموت بعدها ميتة بائسة بشعة فهو محصور بالقسم الذى أقسمه وبالعادات التى تمرس عليها وسط الجماعة وليست لديه الحرية فى تناول الطعام الذى يصادفه فى أى مكان بل يضطر إلى أقل العيش والحشائش، ويجوع جسده حتى يذبل ويموت، وربما لهذا السبب تعفو الجماعة عن كثير منهم وتتلقاهم مرة أخرى وهم فى النزع الأخير رحمة فقط بهم..

"وهم بعد عبادة الله سبحانه وتعالى وتوقيره وحمده، يوقرون اسم مشرعهم الأكبر بينهم (موسى) الذى إذا سبه أو جدَّف فى حقه أحد يعاقب بالإعدام. وهم يعتقدون أن طاعة الكبير واجب والجزء الأكبر من التقوى. وتبعًا لذلك فإنه إذا اجتمع عشرة منهم معًا فلا أحد منهم يتكلم إلا إذا أذن له أكبرهم. وهم يتجنبون البصق بينهم أو على الجانب الأيمن. وأكثر من هذا فهم أكثر تمسكا من أى يهود آخرين بالسبوت والامتناع عن العمل فى اليوم السابع..

"وعقيدتهم فى هذا الشأن هى: أن الأجسام قابلة للتحلل والفساد والمادة التى صنعت منها هذه الأجساد غير دائمة فى حين أن الأرواح (الأنفس) هى خالدة ومستمرة بلا نهاية وإلى الأبد وهى تأتى من أنبل هواء وتتحد مع أجسادها وتدخلها كما لو كانت سجنًا وترتبط فى داخلها ببعض عوامل الجذب والإغواء الخاصة ولكنها عندما تتحرر من روابط اللحم الآدمى فإنها عندئذ تتحرر من ريقة العبودية الطويلة وتبتهج ابتهاجًا عظيمًا وترقى عاليًا..

"ومن بين أفراد هذه الطائفة من يستطيع التنبؤ بما سيأتى عن طريق قراءة الكتب المقدسة واستخدام أنواع عديدة من التطهر ويسلم دائمًا ويطلع باستمرار بأسفار وأعمال الأنبياء، ويندر أن يخطئوا فى تنبؤاتهم.

"وثمة فرع آخر من الإيسينيين يتفق مع الطائفة الأم فى كل شيء: فى طريقتهم فى الحياة والمعيشة ومع العادات والتقاليد والقوانين السائدة بينهم، ولكنه يختلف معهم فى مسألة الزواج فهذا الفرع يعتقد أنه بعدم الزواج فإنهم يقطعون استمرار الحياة الإنسانية ومن ثم الخلافة على الأرض؛ ولو أن كل الرجال كانوا على شاكلة الطائفة الأم فلسوف تتوقف الحياة وتفشل. وبناء على ذلك فإن أعضاء ذلك الفرع الذين يؤمن بالزواج يجربون زوجاتهم قبل الزواج لمدة ثلاث سنوات فإذا وجدوا أنهن يحافظن على نقائهن الطبيعى إلى أبعد حد وإذا أثبتن أنهن مثمرات فإنهم بعد هذه التجربة يتزوجونهن بالفعل، وأعضاء هذا الفرع لا يصحبون زوجاتهم بعد ما ينجبن، إثباتًا على أنهم لا يتزوجون للمتعة ولكن فقط من أجل الذرية".

إلى هنا ينتهى النص الذى ورد عند فلافيوس جوزيفوس فى كتابه Quod omnis probus libersif وثمة نص آخر ربما كان أقصر ورد عند نفس المؤلف ولكن فى كتاب آخر له هو (الآثار – Antiquities) يمكن أن ننقله هو الآخر فالمؤلف يهودى وقريب من الأحداث:

"إن عقيدة الإيسينيين تتبلور على النحو الآتى: كل الأمور الحسنة ترجع إلى الله؛ وهم يعلمون خلود النفوس (الأرواح)، ويعرفون أن جزاء الاستقامة يستحق العمل من أجله، وهم عندما يرسلون ما وهبوه لله إلى المعبد فإنهم لا يقدمون قربانات مادية لأن لديهم تطهرات روحية أهم وأكثر ولذلك فهم مبعدون من بلاط المعبد العام، وهم يقدمون قرباناتهم لأنفسهم (أى السمو الروحى) ومن هنا كان مجرى حياتهم وسياقها العام أحسن كثيرا من غيرهم من الرجال. وهم يكرسون أنفسهم للعمل الاقتصادى.

ومما يستحق أعجابنا أنهم يكرسون أنفسهم أكثر من غيرهم لاكتساب الفضائل وذلك عن طريق الاستقامة الشديدة لدرجة أنها لا تظهر بين أية طائفة أخرى ولذلك شاعت بينهم منذ زمان طويل ويتجلى ذلك بوضوح فى مؤسستهم التى لا تسمح لأية معوقات أن تعوق المشاركة العامة فى كل شيء ومن ثم فإن الرجل الغنى لا يتمتع بثروته وهو فى ذلك مع من لا يملك أى شيء سواء بسواء.

"هناك حوالى ٤٠٠٠ رجل يعيشون هناك هذا الأسلوب من المعيشة وهم لا يتزوجون النساء ولا عندهم توق لامتلاك الخدم، لأن هؤلاء الخدم (العبيد)، قد يحملون الرجال على ألا يكونوا عادلين، والزوجات قد يحملن الرجال على المشاجرات المنزلية.. ولكنهم أى أعضاء الطائفة عندما يعيشون بمفردهم فإنهم يعضدون بعضهم بعضًا. هذا المجتمع يعينون بعض القهرمانات أى الوكلاء لتلقى الدخول والعائدات ويتلقون خيرات الأرض وثمارها، كما يقوم الناس الطيبون والقساوسة الخيرون بتقديم القمح والطعام الجاهز لهم. وليس من بينهم من يختلف عن الآخر فى معيشته.. سواء هؤلاء الذين يعيشون فى المجتمع أو أتباعهم الذين يعيشون فى المدن فكلهم إيسينيون".

وثمة كاتب مسيحى عاش بين ١٧٠ - ١٢٣م هو هيبوليتوس قدم هو الآخر معلومات قيمة قد تكمل كلام كل من فيلو وجوزيفوس وذلك فى أطروحته الموسومة (دحض كل الهرطقات) فهو يقول عن الإسينيين:

"يمارسون حياة الزهد والتكريس وهم مملوءون بالحب المتبادل وهم معتدلون لأقصى حد. وهم يبتعدون تماما عن أى عمل أو تصرف فيه رغبة غير مشروعة وهم حتى يكرهون الاستماع لمثل هذه الأشياء. ورغم أنهم ممتنعون عن الزواج إلا أنهم يأخذون أولاد الآخرين ويتخذون منهم ذرية أو امتدادًا لهم فى العقيدة ويربون هؤلاء الأطفال بالتبنى على طريقتهم الخاصة وعاداتهم ومع ذلك لا يمنعونهم من الزواج رغم أنهم هم أنفسهم لا يتزوجون، وعلى الرغم من أنهم قد يقتنعون باتباع نفس المنهج فى الحياة إلا أنهم لا يحملونهم على عدم الثقة فى النساء.

"وهم يحتقرون الثروة ولا يترددون أبدًا فى تشاطر ما لديهم مع من ليس لديه.. كقاعدة عامة فإن الشخص الذى يريد أن ينضم إليهم فإنه يجب أن يبيع كل ممتلكاته ويقدم ثمنها للمجتمع أى الطائفة، وعندما يتلقى رئيس الطائفة هذا المال فإنه يوزعه على الكل حسب الحاجة. وهم لا يستخدمون الزيوت حيث ينظرون إليها على أنها نجاسة لا تطهير وهناك مراقبون معينون لإدارة الشئون العامة الخاصة بالجماعة.

"وهم يستمرون بطريقة منظمة وبدأب وجلد فى الصلاة من الفجر وهم لا ينطقون بكلمة إلا ويسبحون الله فى ترنيمة أو ترتيلة وبعد الصلاة ينصرفون إلى أعمالهم التى يجيدونها. وهم يمسكون عن الغيظ والغضب وما شابه ذلك من الانفعالات لأن ذلك كله يضل الإنسان. وليس من بينهم من لديه عادة الحلف والقسم ولكن الرجل بكلمته إذا وعد صدق وإذا قال فإن كلمته هى كلمة شرف وهى أقوى من الحلف، وعندما يقسم أحدهم فإنه لا يستحق التصديق.

"وبالنسبة لهؤلاء الذين يرغبون فى الانضمام إلى الطائفة ويصبحون من الأتباع فإنهم لا يقبلون فورًا وإنما يمرون بمرحلة اختبار ويتمرنون على القواعد المرعية. وبعد عام من التجربة والتمرين يجلسون إلى مائدة الطعام مع الأعضاء ولكنهم يستمرون فى الإقامة فى منزل مختلف بعيدًا عن مكان إقامة الإيسينيين واجتماعاتهم. وعندما يثبت المرشح أنه قادر على كبح جماع النفس – ولكن بعد عامين من التدريب على ذلك – وحين يظهر للمجموع أنه يستحق العضوية فإنه يعترف به بين أفراد الطائفة أى يصبح واحدًا منهم".

ويستمر هيبوليتوس فى وصف طبيعة القسم الذى يقسمه مبتدئ الانضمام إلى الجماعة، والأفرع التى انبثقت من مجتمع الإيسينيين والعقائد التى اعتنقوها، وكما نرى فى هذا النص وغيره اعتمد هيبوليتوس فى كثير من النقاط على جوزيفوس على الرغم من أن النص الذى استخدمه هيبوليتوس قد اختلف فى مناسباته عن المناسبات التى أوردها جوزيفوس. وربما كان من بين الاختلافات الكبرى فى محتوى الوصف الذى جاء به هيبوليتوس حول الممارسات الدينية للإيسينيين هو حذف كل الإشارات إلى العبادة المفترضة لبزوغ الشمس كجزء من عبادات الصباح لدى الطائفة. ويعزو جوزيفوس إلى الإيسينيين عموما العقيدة الهللينية التى تقول بأن البدن هو سجن النفس وحيث تتحرر هذه الأخيرة منه بالموت، بينما الجسد نفسه يتحلل ويختفى. ويؤكد هيبوليتوس على أن الإيسينيين كانوا يؤمنون بالبعث والنشور للبدن كما كانوا يؤمنون بخلود النفس وأن البدن والنفس سوف يتحدان مرة ثانية فى اليوم الآخر.

فى عمل ثان لـ فيلو معنون (الحياة التأملية) يناقش المؤلف عقائد وممارسات جماعة دينية أخرى – سوف نناقشها على حدة فيما بعد – تحمل شبها سطحيا بالإيسينيين. هذه الطائفة عرفت باسم (النطاسيين أو المعالجين أو الآسيين) therapeutae وقد ازدهرت هذه الجماعة فى مصر طوال القرنين السابقين على المسيحية وقد أسس هؤلاء النطاسيون مجتمعا ديريا وكانوا نساكا زاهدين كرسوا وقتهم للصلاة والتأمل ودراسة كتبهم المقدسة والمناسبات الوحيدة التى كانوا يجتمعون فيها للعبادة الجماعية كمجتمع دينى كانت فى أيام العطلات (السبوت) والمواسم المقدسة. وقد علق فيلو على أسلوبهم وطريقهم فى الحياة بقوله:

"فى كل بيت من بيوتهم كانت هناك حجرة مقدسة يطلق عليها (قدس الأقداس) أو "الصومعة"، والشخص منهم يدخل إلى هذه الصومعة ويعكف فيها على ممارسة طقوس العبادة والحياة الروحية، وهو لا يصحب معه إلى داخل هذه الصومعة أى شيء، لا شراب ولا طعام ولا أى شيء آخر من احتياجات البدن وإنما فقط الكتب المقدسة والكتابات التى نطق بها الأنبياء والمزامير وأى شيء آخر يمكن أن ينمى المعرفة ويزيد التقوى.

"وهم يصلون مرتين يوميًا: عند الفجر وعند المساء، وعند شروق الشمس يصلون من أجل يوم مشرق جميل، مشرق وجميل بالمعنى الحسى المقصود به ضوء النهار وبالمعنى الروحى أن يضيء عقولهم وينيرها. وفى صلاة المساء يسألون الله أن يحرر نفوسهم تمامًا من ضغوط الحواس.

"والفترة ما بين الصباح الباكر والمساء يقضونها كلها فى ممارسات روحية حيث يقومون بقراءة الكتابات المقدسة ويبحثون عن الحكمة فى فلسفتهم السلفية ويأخذونها على سبيل المجاز والاستعارة والرمز.

"ولديهم كتابات أخذوها عن كبار السن والأسلاف مؤسسى هذا المذهب فى التفكير الذين خلفوا كثيرا من المواد على شكل التفاسير المجازية. وهم يأخذون هذه الكتابات ويحتذونها وينسجون على منوالها ويقلدون الطريقة التى نفذت بها. وهكذا

فإنهم لا يقصرون أنفسهم على التأمل وقراءة النصوص القديمة وإنما أيضًا يؤلفون التراتيل والترانيم والمزامير والابتهالات إلى الله من كل شيء ولون ووزن.

"وهم يبحثون عن الحكمة لمدة ستة أيام بأنفسهم فى العزلة فى الصوامع المذكورة بعاليه وطوال هذه الأيام لا يخرجون من المنزل ولا يطلون حتى من النوافذ على المناظر الخارجية ولكن فقط فى اليوم السابع يجتمعون معًا فى جمعية عمومية ويجلسون فى نظام معين حسب العمر.

"وحينئذ يتقدم أكبرهم سنًا وهو أيضًا أكثرهم علمًا ومعرفة بالعقائد التى يعتنقونها، يتقدم بتؤدة ووقار وبصوت هادئ ومؤثر فى نفس الوقت ويلقى عليهم بخطبة رزينة وعقلانية..

"هذا الحشد العام المقدس الذى يعقد كل يوم سابع ينقسم إلى قسمين: قسم للرجال وقسم للنساء، فالنساء يمثلن بانتظام قسما هاما من الحاضرين بنفس الحماس وبنفس الهدف.

"وهم يعتقدون أن ضبط النفس هو القاعدة التى تنبنى عليها الروح وعليها تقوم سائر الفضائل. ولا يقوم أحد منهم برفع الطعام أو الشراب إلى شفتيه قبل غروب الشمس، فهم يعتقدون أن فلسفتهم تجد مكانها الصحيح فى ضوء النهار واحتياجات البدن تشق طريقها فى الظلام؛ ومن ثم فهم يجعلون النهار لإحداهما وجزءًا يسيرًا من الليل للأخرى... ومن هنا فهم يأكلون كثيرًا إتقاء الجوع ويشربون بما فيه الكفاية إتقاء للعطش وهم يمقتون بشدة الإسراف فى الطعام والشراب باعتباره العدو اللدود الضار بالنفس والبدن.

وثمة طائفة أخرى دينية إزدهرت فى نفس تلك الفترة العامة وكانت لها روابط وصلات روحية على الأقل بمجتمع قمران، وهى الطائفة القديمة التى عرفت باسم (معاهدو دمشق) Covenanters of Damaascus. وقد كشفت حفائر جنيزة القاهرة (١٨٩٦) التى جرت فى سيناجوج القاهرة القديمة عن هذه الطائفة؛ وكان سلومون ششتر قد نشر بعض المخطوطات التى اكتشفت فى مبنى السيناجوج تحت

عنوان (قطع من مخطوط صادوقى (زادوكى). وقد قصت هذه القطع المختلفة من العمل قصة ثروات ومصائر جماعة من القديسين القساوسة فى القدس، جردوا من ممتلكاتهم وجردوا من القدس إبان حركة إصلاح وقعت هناك. وكانت هذه الجماعة قد أطلقت على نفسها "أبناء صادوق" وكانوا يعملون تحت إمرة أحدهم ويدعى (نجم: ستار) وارتحلوا إلى دمشق ونظموا حزبا اسموه (الميثاق الجديد)؛ وربما كانت هذه الجماعة من أوائل من أسسوا حياة ديرية فى اليهودية وازدهروا بقيادة القائد الملهم المهم والذى كانوا يسمونه (معلم الاستقامة) (انظر أيضًا الصدوقيون فى الفصل السابق).

وكانت بعض القطع المخطوطة التى اكتشفت فى كهف قمران ٦ قد وجدت قريبة الشبه بمخطوطة (معاهدو دمشق) التى نشرها ششتر، بينما هناك سبع قطع مخطوطة من كهف قمران ٤ تشتمل على نصوص من الجزء الأول من مخطوطة (معاهدو دمشق) المذكورة. ولعل هذا الأمر يكشف عن وجود علاقة وثيقة بين طائفة (معاهدو دمشق) وتلك الطائفة التى عاشت فى قمران وأنتجت مخطوطات البحر الميت وذلك لأن المثل والعقائد الدينية لمعاهدى دمشق كانت شبيهة للغاية لتلك المثل والعقائد التى تضمنتها مخطوطات كهف قمران ١، وقد رأى كثير من الباحثين أن الطائفتين كانتا متشابهتين. وقد أسس هؤلاء الباحثون رأيا مؤداه أن هذه الجماعة (معاهدو دمشق) ربما عاشوا خمسة وسبعين عاما فى قمران قبل انتهاء فترة الاستيطان الأول للمنطقة وبعدها هاجروا إلى دمشق، ربما تحت قيادة شخصية قيادية أطلقوا عليها اسم (المدافع عن الكتاب المقدس (القانون). وفى رأيى أن هذه الجماعة ليست بطائفة جديدة وإنما هم مجرد أتباع لطائفة قمران الأم وحيث انتشر هؤلاء الاتباع فى كل المدن الفلسطينية على نحو ما رأينا من قبل وليس من الضرورى أن يكون الاتباع فى المركز الرئيسى للطائفة فى قمران.

وربما كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه الباحثين تكمن فى لغز دمشق كمقر لهذه الجماعة فى هذا السياق ولذلك ذهبوا فى تفسير ذلك مذاهب شتى فمنهم من قال أن دمشق قد تكون مجرد رمز للشمال وحيث كانت دمشق قد ضمت إلى مملكة الأنباط

بعد ٨٧ق.م وكانت هذه الجماعة قد رحلت من أورشليم إلى يهوذا وكانت الأخرى فى مملكة الأنباط، بعد تكوين مجتمع قمران الأم. ومخطوطة ششتر تكشف عن أن (معاهدو دمشق) كانوا على علاقة وثيقة بالمعبد فى أورشليم. وقد ورد أيضًا فى مخطوطة ششتر إن هذه الجماعة قد قررت أن القدس هى مدينتهم المقدسة وأن المعبد هو قدس أقداسهم. وربما أكثر من هذا فإن كثيرًا من الباحثين يرى أن جماعة مخطوطة ششتر (معاهدو دمشق) إن هم إلا الإ يسينيون، ويرى أنهم عادوا إلى القدس فى الفترة التى أخلوا فيها مركزهم فى قمران. بيد أن وجهة النظر هذه غير مقنعة بالمرة وتفشل فى الإجابة على سؤال مهم هو لماذا أراد الأيسينيون أن يستنسخوا نفس مجتمع قمران فى القدس بما لا يتفق مع طبيعتهم التى تنأى بهم عن حياة المدن خاصة فى ظل هيرود الأكبر المعادى لهم ولماذا عادت الجماعة إلى قمران بعد وفاته.

أيا كانت طبيعة العلاقة بين طائفة قمران وجماعة "معاهدو دمشق" الدينية فإن من المهم للغاية أن ندرك أن الفحص السطحى للغة وجمل مخطوطات حبقوق ودليل النظام فى قمران ١ يكشف عن استضافة كلمات وتعبيرات حفلت بها مخطوطة ششتر العائدة إلى جماعة (معاهدو دمشق) وهذا التراث الأدبى المشترك بينهما تضمن تعبيرات مثل (ذلك الذى يندم على ارتكاب الخطيئة)، (يعود إلى قانون موسى) ، (يدخل العهد والميثاق)، (يمشى مستقيمًا)، (موسم الزيارات) وغيرها كثير. وفى الواقع فإن طبيعة العلاقة اللغوية وأنماط التفكير فى هذه الوثائق ترجع أكثر ما ترجع إلى الطوائف القديمة التى انبثقت منها الطوائف التى نتحدث عنها فالصلة وثيقة إن لم تكن – كما يقول بعض الباحثين – متطابقة.

والمقتطفات الآتية سوف توضح ما ذهبت إليه من وجود علاقة وثيقة بين نصوص مخطوطة ششتر (معاهدو دمشق) وعيسياه قمران ١ :

- دمشق قطعة ٣ ورقة ١ : "وأن تختار ما يرضى عنه (سبحانه) وتنتهى عما نهى عنه (سبحانه) وأن تمشى قائمًا فى كل طرقة (سبحانه) ولا تذهب إلى الأفكار التى يهيؤها لك الشر، وبعيون مليئة بالزنى".

• الدليل قمران ١ قطعة ١ ورقة ٣: "وأن تحب كل ما يختاره (سبحانه)، وأن تكره كل ما لا يرضاه (سبحانه)، ولا تمشى بعد ذلك فى طريق الخطيئة قلب الشر وبعيون مليئة بالزنى... وأن تمشى قائمًا أمامه (سبحانه)."

• دمشق قطعة ٥ ورقة ٦: "هؤلاء يهرعون إليه (سبحانه) لهم حياة الخلد ولهم كل أمجاد البشر"

• الدليل قمران ١ قطعة ٣، ورقة ١، ٤، ١١: "إن من لا يدع إليه (سبحانه) يجب أن يراجع حياته ولهم كل أمجاد البشر".

• دمشق قطعة ٩، ورقة ٥٠ وما بعدها: "هؤلاء الذين يتمسكون بأحكام الله فى ذهابهم وإيابهم ويستمعون إلى صوت المعلم ويعترفون أمام الله (قائلين): لقد أخطأنا نحن وآباؤنا لأننا سرنا ضد لوائح العهد والميثاق وكان حقًا حكمك فينا". وهؤلاء الذين لا يرفعون أيديهم عاليا بأحكام الله المقدسة ويخضعون لحكمه العادل ويشهدون بالحق الذى أنزله (سبحانه) والذين يتطهرون بالأحكام الأولية التى يعمل بها أطفال رجال الجماعة؛ وأن يصغوا لصوت المعلم الأوحد للاستقامة..".

• الدليل قمران ١ قطعة ١، ورقة ٢٤ وما بعدها: "كل هؤلاء الذين يدخلون فى العهد والميثاق سوف يعترفون بعدهم قائلين: لقد سلكنا سلوك الخطيئة، لقد اقترفنا الأثم، لقد ارتكبنا الرذيلة لقد كنا أوغادًا نحن وآباؤنا من قبلنا لأننا مشينا بعكس الصدق. لقد كان الله عادلاً فى إنزال حكمه علينا وعلى آبائنا".

• دمشق. قطعة ٩. ورقة ١٠ ظهر: ".... عندما يأتى المسيح من قارون وإسرائيل..".

• الدليل. ٩: ورقة ١١: ".... وإلى أن يأتى نبى والممسوحون بزيت البركة من قارون واسرائيل".

وربما يثير هذا التشابه المثير بين النصين التساؤل عن أيهما أقدم من الثانى، وربما يكونان قد أخذا من مصدر واحد مشترك، إذا قارنا نص مخطوطة دمشق فى قطعتها التاسعة، ورقة ٥٠ وما بعدها بمخطوطة دليل النظام، القطعة الأولى ورقة ٢٤ وما

بعدها فلسوف يتضح لنا أن الأولى "دمشق" تؤكد على وجود شكل من أشكال الاعتراف ونوضحه بواسطة اقتباس قصير، والمخطوطة الثانية (الدليل) ترسخ الشكل النهائى للاعتراف نفسه وهذا الاعتراف بالخطيئة والذنب يشبه بعامة، نمط الاعتراف الموجود فى سفر دانيال وربما يرجع إلى التقاليد الدينية لليهود فى الأسر البابلى؛ وهناك نصان فى العهد القديم (فى سفر تثنية الاشتراع وسفر حزقياه موجودان فى مخطوطة عيسایاه موازيان تمامًا لما ورد فى مخطوطة دمشق وبما يؤكد للمرة الثانية أن مخطوطة دمشق أقدم من عيسایاه.

وثمة قضية أخرى تدور حول العلاقة بين مخطوطة دمشق ومخطوطة الدليل تتأتى من إشارة غامضة فى مخطوطة دمشق إلى كتاب مجهول الهوية عنوانه (كتاب هاجو) فقد جاء فى مخطوطة دمشق أن كل القساوسة والقضاة فى المجمع الدينى يجب عليهم أن "يتعلموا فى كتاب هاجو وفى تعاليم العهد". وفى قطعة مخطوطة قمران ١، التى تمثل جزءًا من الأعمدة الافتتاحية فى مخطوطة عيسایاه والتى اقتناها متحف الآثار الفلسطينية فى القدس يبدأ النص بعبارة "وهذه هى القاعدة" والتى تقرر أن الأعضاء صغار السن فى الطائفة يجب أن يتعلموا فى كتاب هاجو" وربما كانت هذه الوثيقة المجهولة تمثل صلب (دليل النظام) الذى تتبعه الطائفة والذى عرضنا له من قبل بنصه الكامل.

والسؤال الآن يتعلق بالعلاقة الممكنة بين مخطوطة دليل النظام: قمران ١ ومخطوطة دمشق وكتاب هاجو على ضوء مغادرة الجماعة الواضح لموقع قمران بعد أربعين سنة من بعد حكم هيرود (٣٧ – ٤ق.م). وثمة عدة مواضع فى مخطوطة دمشق تشير إلى الهجرة إلى دمشق سواء بالفعل أو بالرمز وإعادة تنظيم المجتمع هناك تحت أسم (الميثاق الجديد) على نحو ما ألمعت سابقًا. وعلى ضوء العلاقة المفترضة بين مجتمع قمران وطائفة (معاهدودمشق) تذكر بعض المصادر الثقاة أن تلك الهجرة لابد وأن تكون قد حدثت من جانب مجتمع قمران قبل مطلع القرن الأول الميلادى. وطبقًا لما تقول به المصادر الثقاة أن هذا الإخلاء للموقع تم مباشرة بعد إيداع اللفافات فى كهوف قمران. ومن ثم يرى البعض أن كتاب هاجو أصبح الكتاب المعمول به لدى (الميثاق الجديد) المذكور فى سفر حبقوق ربما بعد تعديل

صيغته أو تلحيقه. وعلى ضوء القرائن التى بين أيدينا حتى الآن فإن من الصعب علينا أن نقول ما إذا كان ما ورد فى مخطوطة الدليل: قمران ١ هو نفس كتاب هاجو. وكل ما يمكننا تأكيده هو أن كلا من مخطوطة دمشق ومخطوطة دليل النظام فى قمران ١ قد عرفتا كتاب هاجو، وربما تكون مخطوطة دليل النظام قد استوعب بعض أو كل كتاب هاجو. ومن الجدير بالذكر أن اكتشاف قطعة من مخطوطة دمشق فى كهف قمران رقم ٦ يدل على أن هذه الوثيقة كانت موجودة قبل ٦٨ م عندما تم تشتيت الجماعة. ومع ذلك فلو أن كسر الإقامة فى الموقع حدث فى عهد هيرود الأكبر فإنه يتواكب مع هجرة الطائفة إلى دمشق على نحو ما أشارت إليه مخطوطة دمشق. ومن هذا المنطلق فإن من الصعب علينا القول بأن هذه الوثيقة قد تم وضعها قبل مطلع القرن الأول الميلادى بزمن طويل؛ وبناء عليه فإن ما جاء من تراث فى مخطوطة دمشق يبدو متأخرًا فى الزمن عما جاء فى (دليل النظام) أى أن دليل النظام أقدم من مخطوطة دمشق فى هذا الشأن.

إن المقارنة الواعية المتأنية بين مختلف المصادر الأدبية المذكورة بعاليه سوف تكشف بكل تأكيد عن وجوه اتفاق وتشابه ووجوه اختلاف وتنافر بين طبيعة مجتمع قمران والجماعات الدينية الأخرى المعاصرة له، هناك من الباحثين الذين اعتد برأيهم يقولون بان طائفة دمشق (معاهدو دمشق) لم يكونوا سامريين بسبب القيمة التى أضفوها على الأنبياء والكتابات المقدسة، ولم يكونوا كذلك إيسينيين خلصاء بسبب إصرارهم على أضحيات الحيوانات، وربما يكونون أقرب صلة بحركة الحاسدية إلا أنهم اعتبروا أنفسهم الأبناء الحقيقيين لصادوق (زادوك). والدارس المتأنى لمخطوطة دمشق يرى فى جماعة (معاهدو دمشق) فئة من فئات (الصدوقيون الإصلاحيون) أو المعدّلون بسبب اتجاههم المختلف واعتقادهم فى الخلود بعد الموت وقدوم المسيح والدفاع عن الزهد والتنسك ورفض هلننة القسية والاعتراف بالنبوات وتراجم وحكايات الأنبياء. ويؤكد الباحثون على أن هناك علاقة ما بين (معاهدو دمشق) وبعض جوانب العقيدة الفارسية بدليل اعتراف "معاهدو دمشق" بالكائنات السماوية (الملائكة) مثل الفارسيين، والقدر المقدر وقد تم من قبل الله والإرادة الحرة. ومن جهة ثانية فقد حرمت جماعة (معاهدو دمشق) الطلاق وقرروا أن الفارسيين قد دنسوا المعبد بما أباحوه من الشذوذ الجنسى.

ومما يزيد من إرباكنا أن مؤسس جماعة دمشق عرف هو الآخر باسم (معلم الاستقامة) و(المعلم الأوحد). وكانت وظيفته الأساسية هو أن يتصرف كسلف للمسيح ومن ثم تكون نتيجة عمله هو أن يتهيأ الناس بمجيء المسيح وعهده. وقد تحدث سفر حبقوق عن (المعلم المستقيم) على أنه قسيس كشف الله له بعض أسرار النبوة. ويبدو أنه قد أعدم – كما أشرت – على يد عدوه القسيس الوغد. وربما لهذا السبب هاجرت الجماعة إلى دمشق وكونوا (الميثاق الجديد). ولقد صورت لنا مخطوطة دمشق مصرع القسيس الوغد وأتباعه بعد نحو أربعين عاما من موت القسيس المستقيم. وهى حادثة ربما ترمز إلى يوم القيامة. وبعد هذا الحادث مباشرة يتم توقع بعث معلم الاستقامة من مرقده ويعيش فى فترة المسيح وفى مخطوطة دمشق إشارة واضحة إلى أن المسيح من قارون وقد نظر إلى إسرائيل على أنها نهاية لفترة القهر، فى إشارة واضحة إلى الربط بين معلم الاستقامة والمسيح. ولكن فى مواضع مختلفة من مخطوطة دمشق هناك إشارات إلى أن المسيح سوف يعود بعد موت معلم الاستقامة مما يدل على أن هناك شخصين مختلفين هما موضع الاعتبار وليس شخصًا واحدًا.

وتكشف الوثيقة عن أن طائفة دمشق كانت تعمل تحت إشراف مشرف إدارى كان مسئولاً عن تطبيق القواعد المعمول بها فى الطائفة ويدير المسائل المالية لأعضائها ويراقب إنضمام الجدد إلى الطائفة ويقوم بدور الراعى والمرشد الروحى. وفى مجتمع قمران كان لهذا الشخص دوره الهام فى حياة الجماعة على ما أشرت ولكن دوره كان قاصرًا على مراقبة وإشراف انضمام الجدد إلى الطائفة. وفى طائفة دمشق لم يكن التبتل (العزوبة) شرطا من شروط الانضمام؛ كذلك لم تكن قواعد ضبط ملكية المجتمع فى طائفة دمشق بنفس الصرامة التى كانت عليها قواعد قمران. ولم يكن استبعاد المرشحين الجدد من الوجبة الجماعية فى مجتمع قمران له وجود فى مجتمع طائفة دمشق، وربما كان ذلك موجودًا ولكن القطع الممزقة فى وثيقة دمشق لا تسعفنا كثيرًا. وكان الجدد فى مجتمع قمران لا يسمح لهم فى سنتهم الأولى بالاشتراك فى الاحتفالات العامة للتطهر وإن كان لا يطلب منهم أن يسلموا أموالهم

وممتلكاتهم إلى المشرف. وفى نهاية السنة الثانية كان مجموع أعضاء المجتمع يراجعون ويقيمون سلوك وتصرفات المرشح، وإذا وجد مناسبًا فإنه ينضم إلى الطائفة بعد احتفالات طقسية واسعة المدى. وسنة بعد أخرى يخضع المجتمع كله لمراجعة وتقييم روحى لتذكر وتفكر المثل التى قام من أجلها وفى ذلك الوقت تتم مكافأة وتكريم هؤلاء الأعضاء الذين التزموا حرفيا بالقواعد وتتم ترقيتهم أما هؤلاء المخالفون فإن رتبتهم تخفض ويعاقبون.

وقد احتلت طقوس أداء عملية التطهر مكانا كبيرا فى شعائر كل من طائفة دمشق وطائفة قمران. وقد ورد فى مخطوطة دمشق أن من الضرورى تدبير كميات من الماء النظيف لاغراض شعائر التطهر. وكانت خزانات المياه الكبيرة الصخرية أفضل من تلك الأوانى والأوعية الصغيرة؛ والماء المخزون هناك يجب أن يكون خاليًا من كل أشكال التلوث. وفى مجتمع قمران كان هناك تركيز خاص على هذا الجانب الروحى من الشعائر أى التطهر وكان من الواضح تمامًا لديهم أن التوبة الحقيقية للروح تكمن فى نظافة الشخص وتطهره من كل دنس. وفى دليل النظام فى قمران تأكيد للمرة الثانية على أن الماء وحده لا يكفى للتطهر وإنما يمكن بلوغ التطهر الكامل بإخضاع الحياة الفردية لقانون وإرادة الله..

وكان الروتين اليومى لمجتمع قمران يقسم اليوم والليلة إلى أجزاء محدودة مكرسة للتأمل الروحى وغيره من الممارسات الروحية. وكان نموذج جوشوا والمزامير يترجم إلى نظام ثلاثى الورديات مما ساعد على جعل التوراة محلا للقراءة والدراسة والتعليم بصفة دائمة على مدار اليوم والليلة. وكان حضور الاحتفالات والمراسيم المقدسة مظهرًا صارمًا من مظاهر الحياة الدينية فى قمران، وكذلك الحال فى مجتمع دمشق أيضًا. وكان التقويم الدينى فى مجتمع قمران تقويمًا شمسيًا يتكون من ثلاثمائة وستين وأربعة أيام (٣٦٤يومًا) مقسمة إلى أربعة فصول كل فصل ثلاثة عشر أسبوعًا. وكان ينطبق تمامًا على الوصف الذى جاء فى سفر اليوبيل وفى سفر إينوخ.

لقد اعتقد أفراد مجتمع قمران فى ثنائية الكون، وهذا ما يبدو من العقائد التى

تضمنها (دليل النظام) وحيث يوجد الحق والضلال؛ أرواح النور وأرواح الظلام، الخير والشر وهو ما نصادفه كذلك فى كتب الديانة الزرادشتية وحيث صور ملاك النور وملاك الظلام فى صراع دائم لامتلاك روح الإنسان. هذا الصراع الذى لن يحسم إلا على أعلى مستوى بالتدمير النهائى للشر يوم القيامة. نفس هذه الفكرة تمت معالجتها باستفاضة فى مخطوطة قمران١ العسكرية حيث وجد أبناء النور أنفسهم فى صراع مع أبناء الظلام فى معركة حامية. وعلى الرغم من الثنائية الأخلاقية البادية فى فكر مجتمع قمران إلا أن التواضع والصدق والعدل والاستقامة والتكريس كانت هى خصائص أعضاء الطائفة، وقد سعى نظامهم اللاهوتى إلى إرساء وسيلة لتحصيل هذه الفضائل.

وهناك بعض وجوه التشابه ووجوه الاختلاف فى تنظيم طائفة النطاسيين (المعالجين) وطائفة قمران يمكن رصدها هنا. ذلك أن طائفة النطاسيين كانت تتبع نظاما ديريا تلعب فيه الصلاة ودراسة الكتابات المقدسة الدور الهام والأساسى وكانت لديهم الشروح والتفاسير القديمة التى تسير على أسس المجاز والاستعارة فى الشرح والتفسير والتى نظروا إليها على أنها معيارية قياسية فى ممارستهم التفسيرية. وعلى ضوء هذه الحقيقة فإن وجود (شرح على حبقوق) خلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد فى قمران، يتسق تمامًا مع ما كان موجودا أيضًا بين طوائف أخرى معاصرة وإذا علمنا أن شرح حبقوق نفسه كان ضمنيًا غير مباشر فى حد ذاته يطبق الحوادث الموجودة فى النبوءة على سياق تاريخى مختلف تمامًا بطريقة وإن لم تكن مجازية تماما إلا إنها ليست أدبية أيضًا.

ولقد سمحت طائفة النطاسيين بعضوية النساء فى مجتمعها كما فعل أعضاء طائفة قمران ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم الدينية على مدى أطول بكثير ولقد مارسوا حياة التأمل والانقطاع ولكنهم لم يتشاطروا الأموال والممتلكات كما فعل مجتمع قمران. وكان النطاسيون يزهدون فى كل متاع الممتلكات قبل الانضمام إلى الجماعة واعتناق الحياة الدينية حتى يتفرغوا لعبادة الله الواحد الأحد. وعلى الجانب الآخر فإن مجتمع قمران ينغمس انغماسا كاملا فى حياة روحية ويختلف إلى حد ما فى

تركيزهم اللاهوتى عن الآخرين من حيث يعتبرون أنفسهم أبناء (الميثاق الجديد) ويعيشون فى الزمن الأخير النهائى للتاريخ الإنسانى وتحت ضغط الالتزام الروحى بالاستعداد لطريق الهداية طريق الله.

وهناك نقاط التقاء يمكن ملاحظتها فى تنظيم مجتمع قمران ومجتع الإيسينيين وحيث أن طائفة الأيسينيين كانت تعيش حياة ديرية أو على نمط الحياة الديرية وحيث أن البضائع والممتلكات كان يتم تشاطرها كملكية عامة تحت إشراف المشرف العام على المجتمع وكان ذلك التنظيم يشبه ما كان عليه الحال فى طائفة دمشق وطائفة قمران. وطبقا لما قاله بلينى الأكبر على نحو ما سبق فإن طائفة الإيسينيين كانوا يحيون حياة التبتل والعزوبة ولا يتزوجون، رغم أن جوزيفوس قرر أن إحدى جماعاتهم أباحث الزواج. ولقد كان الإيسينيون جادين نشطاء بيطبيعتهم وفضلوا العيش فى القرى الصغيرة بدلاً من المدن، وكما ألمعت كانوا بعد صلاة شروق الشمس يذهبون إلى أعمالهم سواء فى الحقول الزراعية أو محلات الحرف الصناعية حتى خمس ساعات وبعد إنهاء وجبة الغذاء العامة يذهبون لمزاولة أعمالهم حتى وجبة العشاء. وفى مجتمع قمران كانت هناك طقوس مماثلة بالنسبة للوجبة العامة مع العلم بأن القس المناوب كان قبل البدء فى الأكل يبارك الخبز والنبيذ. ومع ذلك فإنه فى بعض الجوانب يقدم جوزيفوس وصفا شديد التفصيل فى ممارسات الإيسينيين وعاداتهم بما لا نجده فى كتب مجتمع قمران.

لقد كانت إجراءات قبول الأعضاء الجدد عند الإيسينيين شبيهة جدًا بتلك الموجودة لدى مجتمع قمران، رغم وجود اختلافات أساسية بينهما. لقد كان المرشحون الجدد لعضوية طائفة الإيسينيين يخضعون للاختبار لمدة ثلاث سنوات على الأقل، بينما فى مجتمع قمران لم تكن المدة لتزيد على ثلاث سنوات. وفى كلتا الحالتين كانت هناك فترة سنة قبل الترشيح يخضع فيها المرشح للمراقبة للتأكد من نقاء حياته. ولدى الإيسينيين كانت هذه الفترة ضرورية لتقرير ما إذا كان المرشح قادرا على تحمل شظف العيش فى حياة المجتمع أم لا؛ بينما فى مجتمع قمران كان المرشح خلال هذه الفترة يلزم بدراسة وقراءة الكتاب المقدس والشريعة. وثمة

اختلاف آخر يتأتى من حقيقة أن المرشح الإيسينى ينتهى من فترة الاختبار بحلف القسم ، بينما قرينه فى مجتمع قمران يحلف القسم فى بداية دخوله إلى فترة الاختبار. يضاف إلى ذلك أن المرشح فى قمران كان يسمح له بالإنضمام إلى الوجبة العامة بعد إتمامه عامين مرضيين فى الاختبار، بينما فى مجتمع الأيسينيين كان لا بد للمرشح من أن يقضى ثلاثة أعوام ثم يسمح له بالعضوية الكاملة قبل المشاركة فى (الطعام العام).

ولقد وصف جوزيفوس القسم الذى يقسمه المرشح المبتدئ الإيسينى بأنه "قسم عظيم" ولم يكن يفكر فى مقدار محتويات هذه الأيمان نفسها وكيف أنها تحمل فى طياتها العقوبات التى توقع على الشخص فى حالة خرق القسم. وربما كان الموت جوعا هو عقاب ومصير من يطرد خارج الجماعة، طالما أن الأيمان التى أدخلته إلى الطعام العام قد تم خرقها إذن يحرم عليه الطعام العام هذا، وهى نفس العادة التى جرت عليها طائفة قمران أيضًا. وبصفة عامة فإن الأيمان التى يقسمها الجدد فى طائفة الإيسينيين كانت تحرم عليهم الخطأ العمدى المقصود، وتحتم عليهم أن يكرهوا الشر ويحبوا الخير وأن يمارسوا الصدق والحق والاستقامة والأمانة وأن يحافظوا على التقاليد الديرية للجماعة.

ولقد وصف كل من فيلو وجوزيفوس الشكل العام أو النظام العام لجماعة الإيسينيين حيث لاحظا التنظيم الطبقى تبعًا للسن والذى ميز اجتماعاتهم العامة. لقد كان السلوك فى اجتماعات الإيسينيين نبيلا راقيا وشأنا متميزا. وعندما كان أحدهم يقرأ فى الكتاب المقدس يقوم آخر واقفًا ويشرح ما قد يكون غامضًا فى هذا الكلام. وكان الخروج على هذا النظام العام وسط الاجتماع ممنوعًا تمامًا بين الإيسينيين وكذلك بين أفراد مجتمع قمران.

وكان الالتزام بالسبوت فى مجتمع الإيسينيين مسألة ذات أهمية كبرى، ذلك أنه فى أيام السبوت لابد من التوقف عن أى نشاط أو عمل بما فى ذلك إعداد الطعام نفسه والإيسينيون فى هذا الشأن مثلهم مثل طائفة دمشق التى كانت تلتزم بالسبوت التزاما مطلقًا. وربما يكون من الجدير بالذكر أن مخطوطة (دليل النظام) لم تحدد

ساعات بعينها لهذا السبوت ولم تعط تعليمات بذاتها فى هذا الصدد. كما لم يحدد المكافأة والجزاء الذى يناله من يراعى هذا السبوت والعقوبات التى توقع فى حالة المخالفة وإن دخل هذا السبوت فى النظام العام للجزاء والعقوبات أى الثواب والعقاب لدى الطائفة. ولم يكن هذا السبوت هو الإنحراف الوحيد عن مسار الحياة الديرية المعاصرة والعادات والتقاليد المرعية، طالما أن الانتاج الفكرى لطائفة قمران لم تقل شيئًا عن إرتداء العباءات البيضاء أو التخلص من الغائط على الطريقة الإيسينية.

والمتأمل فى المقارنات السابقة يجد أن هناك مساحات واسعة من الاتفاق بين طائفة قمران وطائفة دمشق وطائفة الإيسينيين. وبالنظر إلى القرائن التى قدمها جوزيفوس على نحو ما سبق ذكره فإن من الضرورى أن نلاحظ أن مصطلح (إيسين) كان يستخدم بمرونة شديدة من حين لآخر ومن ثم فإن المجتمعات أو الطوائف الدينية التى كانت تعترض أعتراضًا مطلقًا على مسألة (التبتل أى العزوبة) كانت تدخل أيضًا تحت هذه. الصفة وتحت هذا التحديد (إيسين). ورغم وجود وجوه تشابه كثيرة إلا أنه كانت هناك وجوه اختلاف وتنافر كثيرة أيضًا بين تلك الطوائف؛ فلا مجتمع دمشق ولا مجتمع قمران سحب ثقته فى النساء كما فلعت غالبية الإيسينيين؛ وإن كانت هناك أقلية من الإيسينيين أقبلت على الزواج ووافقت عليه. وبينما أنغمست طائفة دمشق فى تكريسات (أضحيات) الحيوانات، فإن طائفة الإيسينيين رفضت ذلك تمامًا، ولكن إذا صدقنا ما قال به فيلو فإن جماعة الإيسينيين جعلت من نظام الأضحيات ككل نظامًا روحيًا كاملاً بعيدًا عن أضحيات الحيوان. وليس هناك حسبما رأينا فى وثيقة (دليل النظام) الخاصة بمجتمع قمران أى شيء محدد خاص بالأضحيات مما يدل على أن اهتمامهم الأول كان منصبًا على تقديم الصلوات الروحية لله وحده.

وثمة اختلاف آخر بين عادات وتقاليد الإيسينيين ومجتمع قمران يمكن أن نلاحظه فى شئون الحرب وأعمال القتال على وجه الإجمال والعموم فقد قرر فيلو أن الإيسينين كانوا هادئين مسالمين بطبيعتهم فى حين كشفت وثيقة الحرب العسكرية

التى خرجت من كهوف قمران عن وجود أسلحة وجيوش اشتركت فى معارك بدنية حتى ولو فسرت الوثيقة تفسيرًا دينيًا أخرويًا؛ ذلك أن التمثيل الواقعى بفرق المعركة والتشكيلات العسكرية فى وثيقة الحرب الخارجة من كهوف قمران لابد وأنها بالضرورة تعكس ممارسات عسكرية معاصرة على أرض الواقع ولاتشى أبدًا بأن مجتمع قمران ومتنسكيه كانوا شيئًا آخر سوى مجتمع من المسالمين الهادئين بطبيعتهم.

وعندما تجمع كل وجوه التشابه وكل وجوه الاختلاف والتنافر وتقارن وتحلل يبقى السؤال الحائر قائمًا وهو متى تكون مجتمع قمران وظهر. وطالما أن الخلفية التاريخية للمخطوطة العسكرية وشرح حبقوق يعكسان فترة المكابيين ويشيران إلى حكم أنطيوخوس إبيفانيس فإن هذه الطائفة قد تكون قد تكونت وظهرت كرد فعل ضد هلننة يهوذا قبل زمن وعهد انطيوخوس. وفى ظل هذه الظروف يكون الكتيم الذين ذكروا فى شرح حبقوق إن هم إلا قوات السلوقيين؛ كما أن القس الوغد لم يكن إلا واحدًا من ثلاثة هم: جاسون أو منيلاوس أو ألكيموس، كذلك لم يكن معلم الاستقامة إلا القسيس الأعلى أونياس الثالث. ولو كانت الخلفية التاريخية المبسوطة فى المخطوطة العسكرية وشرح حبقوق والتى أغلتها كهوف قمران؛ تتواكب مع زمن وعهد الاسكندر جانيوس (١٠٣ - ٧٦ق.م) فإن الكتيم هنا قد يكونون قوات السلوقيين أو الرومان والطائفة المضطهدة قد تكون جماعة من الفارسيين أو جماعة من الإيسينيين.

ولقد فهم بعض الباحثين أصول لفافات مخطوطات قمران على ضوء خلفية الوجود المبكر للرومان فى فلسطين (٦٣ق.م). ومن ثم يكون أريستوبوليس الثانى وهيركانوس الثانى هما (القسيس الوغد) الذى اضطهد جماعات الإيسينيين. وفى ظل هذه الظروف لن يكون الكتيم هنا إلا الفيالق الرومانية ولن يكون (معلم الاستقامة) هنا إلا أونياس صانع المعجزات. ويرى بعض الباحثين أن شرح حبقوق عندما تحدث عن (معلم الاستقامة) فإنه إنما كان يشير بالفعل إلى مجموعة القساوسة العظماء الذين كان لهم سلطان ونفوذ فى الفترة من زمن جون هيركانوس (١٣٤ -

١٠٤ق.م) إلى زمن هيركانوس الثانى (٦٣- ٤٠ق.م)؛ ويكون الإيسينيون هنا أيضًا هم الطائفة الدينية المضطهدة.

وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعًا فإنه يبدو جليًا وبالضرورة أن جماعة قمران قد تأسست وأن أصولها ترجع على الأرجح والأقدم إلى عهد أنطيوخوس إبيفانوس الرابع وربما أقدم من ذلك الزمان. ويرى بعض الباحثين ممن أثق فى رأيهم إن مجتمع قمران كان مرحلة متقدمة فى تطور جماعة الإيسينيين بخلاف ما قرره كل من فيلو وجوزيفوس مع الأخذ فى الاعتبار أن جوزيفوس تحدث عن الإيسينيين باعتبارهم موجودين فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد. وطالما أن وجوه الشبه مع الممارسات الإيسينية العامة واضحة بذاتها فى مخطوطات قمران فإن الاختلافات والتباينات لا بد وأن تؤخذ أيضًا فى الاعتبار، وحيث يرى بعض الباحثين أن تلك الاختلافات والتباينات قد تقف عائقًا أمام التعرف الكامل والتحقق على جماعة الإيسينيين وجماعة قمران. وحيث يمكن أن تؤدى بنا إلى القول بأن جماعة قمران ليست من الإيسينيين فى شيء ولو حتى بالمعنى العام، وربما يكونون قد انتموا إلى الجماعة الاستثنائية من الإيسينيين التى أباحت الزواج واستمتعت به.

وقد شايع بعض الباحثين فى الوقت الحاضر جوزيفوس فى اعتناق نظرية تأثير البيتاجوريين الإغريق على مجتمع قمران، وقد رأى آخرون أن هناك ثلاث مراحل لتطور هذه الطائفة بدأت بالإنشقاق بين الفيالق اليهودية القسية واستمر فى مرحلة قمران التى تميزت بالانفصال التام عن اليهودية وأنتهاء بالإيسينية التى وصفها كل من فيلو وجوزيفوس فى منتصف القرن الأول الميلادى. وعلى الجانب الآخر هناك من الباحثين اليهود المحدثين من يجعل ظهور طائفة قمران فى القرن الأول الميلادى على أساس أن الفارسيين قد خلفتها يهودية الربابنة وباعتبار أن الطائفة كانت امتدادًا لتنظيم جماعة دينية بدأت فى القرن الأول قبل الميلاد. وفى رأى هؤلاء الباحثين أن جماعة قمران كانت تجاهد فى سبيل الحفاظ على التراث والتقاليد الفارسية ضد سيادة وتطور أيديولوجية الربابنة ويهودية الربابنة؛ وحيث كان مجتمع قمران هذا فارسى النزعة فى مدخله إلى العقيدة والحياة والمعيشة ولم يكن إيسينيا.

ولقد أثارت طبيعة العلاقة بين (مجاهدو دمشق) و (طائفة قمران) تساؤلاً آخر حول علاقة هاتين الطائفتين بجماعة (القراءين) وحيث كان هؤلاء (القراءون) هم أيضًا طائفة يهودية ظهرت فى القرن الثامن الميلادى، رفضت يهودية الربابنة وتراثهم وتقاليدهم على نحو ما جاء فى التلمود، وبنت عقائدهم على ما جاء فقط فى نص الكتاب المقدس العبرى نفسه. وكانت تعاليمهم تشبه تلك التى وردت فى وثيقة دمشق؛ والتى ربما تكون قد أثرت فى كتابات كير كيزانى الباحث القرائى فى القرن العاشر الميلادى الذى يبدو أنه اعتمد إلى حد كبير على مخطوطة دمشق كمصدر أساسى له. ولقد جاء وصفه للتقويم الصادوقى (الزادوكى) بصفة خاصة طبق الأصل لذلك التقويم الذى ورد فى سفر اليوبيل؛ والذى كان كما أشرت من قبل تقويم مخطوطة دمشق وتقويم طائفة قمران.

لقد تحدث كير كيزانى عن طائفة الكهف التى كانت معروفة له باسم (المهاجرون) (الاسم الأصلى: مغاريون) أو ربما أهل الكهف من العربية "مغارة". وهو يضع هذه الطائفة بعد "الصدوقيون" فى الترتيب الزمنى وقبل المسيحيين بيد أنه لم يسمهم باسمهم. وهذا الوقت الذى حدده كيز كيزانى هو نفس الوقت الذى ازدهرت فيه طائفة قمران والذى أودعت فيه مخطوطات قمران الكهوف والتى ربما تشير إلى علاقة من نوع ما بين (المغاريين) وتجمع قمران. لقد جاء ذكر المغاريين أيضًا فى أعمال اثنين من المؤلفين المسلمين هما: البيرونى (٩٧٣- ١٠٤٨م) والشهرستانى (١٠٧١- ١١٥٣) ويبدو أن كليهما قد اعتمد على مصدر لم يصل إلينا يرجع إلى القرن التاسع الميلادى. وقد ذكر الشهرستانى أن طائفة – الكهف هذه وجدت فى المائة الرابعة قبل آريورس مما يجعلها بالنسبة لنا وجدت فى القرن الأول قبل الميلاد وهو ما قرره كيركيزانى تقريبًا.

ولقد كان اكتشاف مسكن صخرى بالقرب من جريشو (جرش) نحو سنة ٨٠٠م والذى فحصه أغل بعض المخطوطات على نحو ما ذكر فى خطاب سوريانى موجه من بطريرك سيلوقيا النسطورى تيموثيوس الأول (٧٢٦- ٨١٩م) إلى سيرجيوس كبير أساقفة عيلام. ويرى بعض الباحثين أن الكهف المشار إليه

(المسكن الصخرى) قد يكون قمران ١ وإذا كان ذلك كذلك فإن طائفة – الكهف التى أشار إليها كيز كيزانى هى نفس طائفة قمران. وربما تفسر لنا هذه الفرضية قلة المخطوطات التى أغلها كهف قمران رقم ١ سنة ١٩٤٧. طالما أن الجزء الأكبر من مخطوطات هذا الكهف قد سحب سنة ٨٠٠م.

وكما أشرت سريعا من قبل فإن العلاقة بين عقيدة القراءين ومحتويات مخطوطة دمشق قد اتضحت أكثر بعد اكتشاف قطعة من مخطوطة دمشق فى الكهف رقم ٦ قمران. ومن هنا يحق للباحثين أن يستنتجوا أن وثيقة (معاهدو دمشق) كانت تنسخ كثيرا ويتم تداولها بين القراءين وكانت بعض نسخ هذه الوثيقة قد اتخذت سبيلها إلى جنيزة القاهرة.

ومع مزيد من البحث والتقصى رأى بعض الدارسين بعيون خاصة علاقة ما بين طائفة قمران وطائفة اليهود المسيحيين المعروفين باسم (الإبيونيون). ويرى هؤلاء الباحثون أن هذه العلاقة بدأت بعد تفسخ مجتمع قمران سنة ٦٨م، بل إن من الباحثين من ذهب إلى أن (معاهدو دمشق) إن هم إلا الإبيانيون أنفسهم فى القرن الأول الميلادى وأن (معلم الاستقامة) إن هو إلا المسيح عيسى بذاته. ومهما كان هناك من توافق وثيق بين وجوه عقائد الإبيانيين وفكر جماعة قمران فلا ينبغى أن ننسى أن جماعة قمران كانت جماعة يهودية بحتة. أما الإبيانيون فقد كانوا على العكس من ذلك مسيحيين رغم انحرافهم عقيدة وممارسة عن الكنيسة الأولى. ولهذا السبب فإن من الصعب الاعتقاد فى أن ممارسات الابيانيين الدينية تعتمد أو تقوم على مزيج من التوجه النظرى لجماعة قمران من جهة والمسيحية اليهودية البدائية على نحو ما جاء فى العهد القديم من الجهة الثانية.

إن البحث فى أصل وطبيعة مجتمع قمران قد يراه البعض معقدا كل التعقيد ويراه البعض الآخر بسيطًا سهلاً؛ وحيث أن القرائن الحالية لا تسمح باتخاذ رأى نهائى وقاطع. بيد أن العلاقة العامة بين مجتمع قمران وطائفة الإيسينيين واضحة تمامًا ولكن لا بد من أخذ الاحتياطيات العلمية نحو الميل إلى اعتبار الإيسينيين هم مجتمع قمران بناء على وجوه الشبه السطحية بينهما وحيث يرى فقهاء المنهج العلمى أن

الاختلافات أهم بكثير فى قضايا المقارنة من وجوه الاتفاق والتشابه. وإذا كان لنا أن نعتبر مجتمع قمران هو نفس طائفة الإيسينيين فإن ذلك يجب أن يؤخذ بالمعنى العام للغاية. ولعل الفروق بين الطوائف الدينية والتى كشفت عنها مخطوطة دمشق ومخطوطة (دليل النظام) إنما تشير إلى مراحل تطور فى تاريخ طائفة واحدة بعينها وهو أمر يحتاج إلى مزيد من البحث. لقد اقترحت بعض الأوساط أن نفس الطوائف كانت على نفس الخطوط العامة للعقيدة على نحو ما كانت عليه بعض الطوائف المعمدانية التى ازدهرت فى الفترة الربابينية. ولكن للمرة الثانية فمن الصعب الجزم بصحة ذلك الرأى؛ وعلى التحليل النهائى أن ينتظر حتى ظهور قرائن جديدة ترجح الرأى القائل بأن الإيسينيين هم مجتمع قمران صاحب المخطوطات. ولا أعتقد أن المخطوطات التى بين أيدينا سوف تغل معلومات تقلب الآراء الحالية رأسًا على عقب.

وإلى أن تظهر وثائق جديدة أو معلومات جديدة فى وثائق قديمة فإننا حتى الآن فى العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين على قناعة بأن مجتمع قمران هو طائفة الإيسينيين وإجماع الباحثين حتى اليوم هو على ذلك؛ ومن ثم فلا بد من الوقوف مليًا وبشيء من التأنى أمام (طائفة الإيسينيين) التى يعتقد – حتى الآن – أنها صاحبة مخطوطات البحر الميت أو وادى قمران.

* * *